نظرات نقدية في ملحمة

« شاعر في طيارة »

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

أسعدني صديقي الأستاذ محرر (المقتطف) حينما عهد اليَّ بنقد هذه المنظومة البديعة للشاعر النابغة فوزي المعلوف ، لأنَّ الأثر الجليل الباهر لا بدَّ أن يُبهج كلَّ من يتملاه بنفسٍ صافيةٍ تفتش عن مظاهر الجمال أينما كان ، ويسرّني أن يشترك معي كثيرون من القرّاء في الاستمتاع بهذه التحفة الأدبية متتابعين هذا النقد

لا شكَّ في أنَّ فوزي المعلوف شاعرٌ رومانطيقيٌّ موضوعاً وأسلوباً ، وهو في هذه الملحمة — المؤلفة من اربعة عشر نشيداً ، جامعةً لستة وتسعين ومائةٍ من الأبيات — يُطالعنا بأبهى خياله وزبدة نظراته الى الحياة ؛ كما يقدّم الينا تحفة فنية تبرهن لمن يعوزهُ البرهانُ أنَّ اللغة العربية مؤاتية جدَّ المؤاتاة للشعر العصريّ ، فما يرجع قصور هذا الشعر في جملته اليها وإنما يرجع الى الأذهان المقلِّدة الكليلة ، والى الاخيلة الضعيفة ، والى قصور ثقافتنا بوجه عام

***

فأمّا مذهبُ الشاعر في الحياة فأقرب ما يكون الى التشاؤم ، والى البثّ من حياة الأسر الجسدية ومن شرور الدنيا التي لا ترضى بها روحية الشاعر النقية ، مع ميلٍ الى الاعتقاد في التناسخ او في وحدة الحياة :

ليت شعري كلُّ النبات الذي في الـ ـكون مِن زَهْرِهِ الى لبلابه
ليس الاّ عصيرَ أجسامِ مَن ما تُوا فزانوا الثرى بأجمل ما بِهْ
مثل ظلٍّ في حافةٍ بخّرتهُ الشمـ ـسُ فاسترجعته عينُ سحابهْ
فتراه في الجوّ ثانيةً طلاًّ نقيّاً يُحيي الثرى بانسكابهْ

وهذه روحٌ خيّامية لا جديدَ فيها ، ولكنَّ الشاعر مُطالَبٌ أولاً بالتعبير عمّا يكنّه وجدانه ، فحسبه أن يعلن عن شعوره وعواطفه في نسقٍ فنيٍ ، وهذا ما وُفِّق اليه فوزي المعلوف في أسلوب مبتكرٍ على جناح طيارته ، فكان بذلك مجدّداً وإن تناول آراء مألوفة . وهو أقدر ما يكون على تصوير ذلك في نشيده الثاني عشر الموسوم « كفّارة الشاعر » إذ يقول :

وتدانت روحٌ هناك مني رمقتني — بلا غضب
حين نبها أقبلت تدافع عني سحَّ ظني — ولا عجب
هي روحي قامت تخلصني من غضب العالم المحشور بشمسه
طوقتني بعصيها وقالت : « أخواني ، رفقاً به وبؤسه
هو من عالم التراب ولكن شأنه غير شأن أبناء جنسه
سكن الارض ثم عافها وهو لو خير ما اختار غير ظلمة رمسه ! »

وهذا احتقار تام للحياة . وهو يرى ان ارتقاء الانسان ارتقاء ناقص أو معكوس (النشيد الحادي عشر) :

فاذا بالأذى وليدُ حجاه واذا بالشرور بنت لسانه

وكله سخط على الانسانية العياء وازدراء لنزعاتها، فيقول على لسان أحد الارواح عن أخيه الانسان (النشيد العاشر) :

هو يحيا للشر فالشر يحيا أبداً حيث حل شؤم ركابه
وهو لا ينفع البسيطة الا حيث يثوي في القبر بين رحابه
حيث عنصره الآدميُّ فيعطي منه بعض الغذا الى أعشابه

***

وعندي ان نظرات الشاعر الفلسفية الاجتماعية ليست خالية في مغزاها من الجديد فحسب بل هي ضارة أيضاً ، فلا سلوى ولا فائدة منها للانسانية، واحسب انها نزعة تقليدية متغلغلة بين معظم أدبائنا ، أو كأنما هي شروح متتابعة للبيت القديم :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت انسانٌ فكدت أطير !

ولا أدري لماذا ننسى حقيقة أخرى : وهي أن الانسانية في جملتها تسير الى الأمام في الجانب الروحي والفكري بل والجسدي ايضاً ؟ لماذا ننظر نظرة قصيرة هي أقرب ما تكون الى الانانية فنسخط على العالم لآلامنا وتضحياتنا الذاتية ، ونتناسى الى جانب ذلك نظام الحياة الاسمى الذي يجعل الفرد للجماعة وإن جعل كذلك الجماعة للفرد ، لصالح هذه الجماعة في النهاية ؟ كذلك لا أدري لماذا لا نقر بأن لنا في المدنية الانسانية برغم عيوبها سلواناً وعزاء :

والحسنُ في هذه الدنيا على صورٍ لكنما يجذب الإنسانَ إنسانُ

ولئن كان في سخط الشاعر وفي تقريعه لابناء جنسه أو نوعه تهذيباً وتربية ، فأجمل من ذلك أن يحمل أمامهم مصباح الأمل وحب الجمال الذي هو قمة الحياة بل ذات الحياة كما

فعل الدكتور روبرت بردجز في ملحمته (عهد الجمال — The Testament of Beauty) ، وهذا ما خلت منه هذه المنظومة الموصوفة بأنها « فلسفية اجتماعية » ، واكتفى الشاعر بعد صخبه وشكاته بالالتجاء الى دموعه وأحلامه الثائثة على براءته . فرسالة الشاعر في هذه الملحمة ليست رسالة أمل قوية بانية ، ولكنها رسالة بغض وشكوى ويأس مع شيء من التصوف

***

وأمّا خيال الشاعر فهو الخيال الجامح الوثّاب المعهود في جميع الشعراء اللبنانيين تقريباً ، وهذا من صميم روح الشعر . وخير أناشيد «شاعر في طيّارة» هي الحلقة مع هذا الخيال البديع كما نلحظ في نشيد الاستهلال وفي تضاعيف معظم الأناشيد الأخرى ، لا سيما في النشيد الثاني والرابع والسابع والثالث عشر — وهي التي وصف فيه شعوره وهو طائر :

موقفٌ لا يُمثّلُ الفِكرُ أبهى منه ، في نومِه وفي يقظاتِه
إذ جلسنا على بساطٍ من الشُّهبِ يفوحُ الغرامُ من جنباتِه
تحت جوٍّ كأنّه سِنَةُ النّوْمِ ، ترفُّ الأحلامُ في طيّاتِه !

وأمّا عن أداء هذه الأخيلة والمعاني فقد جاء جيلاً حقّاً ، وقد أحسن الشاعر بتقسيم ملحمته الى عدة أناشيد متنوّعة القوافي ، متدرّجاً فيها من حُلمه بمُلكِ الهواء ، الى تحليل نفسية الشاعر ، الى تحقيق حلمه ، الى وصف تجواله الهوائي ، الى خواطره أثناء طيرانه وأجلها مُناجاةُ الأرواح له ، وأخيراً عودته الى أمّه الأرض . وأحسن كذلك بأن اشتمل كلّ نشيد ببيتين رشيقين ضمنهما صفوة النشيد ، فكان مشوّقاً بها الى مطالعته ومساعداً على تنويع النغمات ومريحاً لنفس القاريء .

وأمّا عن التنسّق النّظمي فهو في جملته رقيقٌ جيّدٌ ، وان جاء ضعيفاً في مواقف مع اباحات لفظية لا يقرّها الشعراء المدرسيّون ولا سيا المصريون منهم : كالاكثار من قصر الممدود ، وكاستعمال ألفاظ في غير موضعها الا على سبيل التجوز — وهو ما لا موجب له مثل قوله « طوّقتني بمعصميها » والأصوب أن يقول « طوّقتني بساعديها » . ولكنّ هذه هنات لا يؤبه لها في تقدير هذا الشاعر النابغة الذي يستحقّ الثناء الجمّ والتهنئة ، وما كنت لأشير اليها الا حبّاً في انصافه كما أنصف هو بنظمه الشعر العربيّ ، والبيئة المتحضّرة الراقية التي غذّته بحبّ القصاصي ، وكما أنصف وطنه الاصل الذي أنجب غير واحد من نوابغ شعراء العربية المجدّدين ، وقد وسمتهم روح الأرز الحرّة بحرّية الخيال والفكر والتعبير ، فكان معظمهم صلة قوية بين محاسن الادبين الشرقي والغربي